سودان وادى النيل والإسلام

يرجع الفضل فى تغلغل النفوذ الإسلامى وانتشار العقيدة الدينية إلى التاجر العربى وإلى المهاجر العربى الذى قذفت به جزيرة العرب فى عهد المصطفى عليه الصلاة والسلام، وفى عهدخليفتيه أبى بكر وعمر عليهما رضوان الله، وذلك عندما بدأت الجزيرة العربية تشعل نار العداء لمحاربة الدين الجديد ، وتحولت بسبب ذلك إلى مسارح للقتال قوامها المناوئون للرسالة المحمدية، وما تبع ذلك من حروب الردة. وهكذا بدأت المعارك بين القديم من الوثنيات التى توارثها القوم عن الأقدمين، وبين الجديد الذى بشر به النبى عليه السلام . فالدين الجديد أزال الفوارق وأوضح الحدود — لذلك كان من الطبيعى أن يتطلع نفر من المعسكرين المتقاتلين إلى أوطان جديدة ، يطمئنون إلى مقامهم فيها حتى ينجلى الحال ويستتب الأمر .

جاء أولئك إلى الشاطئ الإفريقى عبر البحر الأحمر (الأريترى) ، كما رحلوا إلى بلاد أخرى فى آسيا .

جاء أولئك الذين اتجهوا نحو إفريقيا إلى بلاد الحبشة، وإلى وادى النيل فى جزئيه الأعلى والأدنى، وإلى بحر الزنج — جاءوا ولم تستوعب بعد غالبيتهم رسالة الدين الجديد، فحملوه مزيجاً من العقائد. وكان بذلك من الهين على تلك الجماعات أن تتكيف بما وجدته من بيئتها الجديدة ، من عقائد وتقاليد بين السكان الأصليين فى وطنها الجديد، وسوف نبين أثر ذلك فى الاتجاهات الفكرية والتكوين الاجتماعى كما سيجىء .

عرف العرب وبخاصة أهل الجنوب الغربى شرق إفريقيا منذ عصور سحيقة، وتوطدت بينهما الروابط التجارية والسياسية . فالمملكة الحميرية فى بلاد اليمن ازدهرت فى تجارتها ، وحافظت على استقلالها ، حتى القرن السادس الميلادى، فكان من الضرورى ومقاليد التجارة فى أيدى العرب أن تنشأ مراكز تجارية على

الشاطىء الإفريقى بها أسواق تبادل السلع ولتموين السفن . وبدأت سلسلة المحطات التجارية من عزانيا[١] جنوباً حتى رأس بناس شمالا وصارت غالبية هذه البقاع وبالأخص الجزر الواقعة على الشاطىء الشرقى لأفريقيا تحت سيطرة مملكة أو غيرها من ممالك الجنوب الغربى من غربى آسيا ، أو تحت سيطرة مملكة والفرس من شيراز . ومنذ عهد قديم جداً بدأت رحلات الشتاء والصيف بين مختلف الأقطار الأسيوية وأفريقيا[٢] . ثم أصيبت التجارة العربية بنكسة قوية ، عند ما أرسل الروم سفنهم عبر البحر الأحمر بعد اكتشاف الرياح الموسمية للمتاجرة مع الهند مباشرة .

وحدث خراب سد مأرب ، فكان ضربة قاصمة على اقتصاديات جنوب غربى الجزيرة العربية وبلاد شرق إفريقيا

جاءت بعد ذلك يقظة العرب بالاسلام ونوره ، وتدفقت جموع العرب إلى الشاطىء الإفريقى بسبب حروب الردة وغيرها ، وبدأت مع يقظة الإسلام كتابة تاريخ صحيح عن إفريقيا المظلمة .

ولقد كان لتلك المجرات إلى بلاد عرفها العرب وارتبطوا بها — اقتصادياً وسياسياً منذ زمن بعيد — أعظم الأثر فى هجرات أوسع نطاقاً ، وبخاصة بعد فتح مصر وحروب النوبة والبجة ، إذ تأسست مهاجر كثيرة فى الجزء الأوسط من السودان ، واجتمعت فى كل مهجر قبيلة من القبائل أو بطن من بطون هذه القبيلة أو ما يحالفها من بطون أخرى . وأطلقت على تلك المستعمرات « دار » متبوعة باسم القبيلة أو الشيخ ، لتمييزها عن غيرها . وكانت تلك الدار هى موطن للقبيلة ، يخرجون منه إلى مواطن المرعى والخصب فى مختلف الفصول . أما المهاجرون الذين سكنوا المدن فقد اسكنوا مواضع خاصة عرفت بالرباطات — وكانت هذه الرباطات تقام فى ضواحى المدن .

أخذت تلك المهاجر تواجه ضروباً من المشاكل الخاصة بكل منها ، فأبعدتها بعضها عن بعض لأسباب عدة منها قلة نصيبهم من المدنية فى البلاد جاءوا منها وما احتوته بيوتهم من زوجات من أهالى البلاد التى جاءوا إليها ، وهى فقدت مدنيتها وثقافتها منذ أربعة قرون قبل ظهور الرسالة المحمدية. فكان ذلك عامل قوى فى إبعاد هؤلاء المهاجرين عن تيارات التفكير والثقافة فى العالم الإسلامى لأكثر من

---

(١) Azania = زنزبار .

(٢) رحلة الصيف من آسيا إلى الشاطىء الإفريقى ، ورحلة الشتاء من الشاطىء الإفريقى إلى آسيا (الهند والصين وغيرها) .

ستة قرون بعد الفتح الإسلامى لمصر ، فبقوا بذلك فى حالة انحطاط وتدهور وحروب قبلية ؛ وكانت حياتهم إجمالا تتبع خطوات أبلهم . وما لبثت هذه الحالة أن دخلت عليها عناصر جديدة مع الهجرات الجماعية الكبيرة العدد من شمال الوادى ، بسبب قيام عدد من السلاطين الذين كانوا يخشون العرب ويعتبرونهم عنصر خطر على سلامة دولهم .

قامت السلطنة الأيوبية فى أعقاب الفاطميين ، وعلى رأسها السلطان صلاح الدين وذلك فى عام ١١٧٤ ميلادية ، بعد موت نور الدين محمود .

ولم يكن لصلاح الدين وهو الغريب عن العروبة أن يتمتع برضى جميع العرب فى البلاد التى حكمها ، إذ انتقل بهم من شيعة الفاطميين إلى مذهب السنة والدعاء فى الجمعة للخليفة العباسى[١] الواقع أن الكثيرين من شيعة الفاطميين كرهوا صلاح الدين أشد الكراهية ، . وآية تلك الكراهية محاولات الاعتداء على حياة السلطان ، ويتجلى بغض صلاح الدين للعرب فيما كتبه المقريزى .

« . . . فى محرم (عام ٥٧٧ هـ ١١٨١ م) خرج الأمر بالحوطة على مستغلات العربان بالشرقية ، وأمروا بالتعدية إلى البحيرة ، ووقعت الحوطة على إقطاع جذام وثعلبة لكثرة حملهم الغلال إلى بلاد الفرنج وكثر الفار بالمقاثى والغلال بعد حصادها . . . [٢]

ويبدو أن هذه البغضاء ترجع فيما ترجع إليه من الأسباب إلى المؤامرات التى دبرت للفتك[٣] بحياة صلاح الدين كما سبق أن ذكرنا ، وإلى الدعوة إلى مذهب الباطنية التى كان يدعو لها بعض أتباعها فى صعيد مصر[٤] . ونتج عن ذلك الاضطهاد من قبل الدولة الأيوبية أن تجمعت أسباب الثورات والعصيان التى لم تقلل من حدتها الحملات التى وجهها السلاطين للجهاد فى البلدان المجاورة .

أخذ الاضطهاد شكلا أكثر قسوة بعد انتقال السلطان إلى المماليك البحرية (فى ١٢٥٠ ميلادية) ، وسارت الأحوال من سيىء إلى أسوأ . ولم يترك العرب فرصة

---

(١) أمر صلاح الدين الخطباء بالدعاء للخليفة المستضىء بنور الله بعد موت العاضد .

(٢) المقريزى : السلوك . نشر الدكتور مصطفى زيادة ، ج ١ ، ص ٧١ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٥٣/٥٤ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٧٦ .

لإثارة الفتن والقلاقل، وشاركهم فى ذلك بعض السكان الأصليين، وقد جمع بينهم ظلم المماليك واضطهادهم وضرائبهم الفادحة . فقد حدثت فى العالم الثالث بعد منتصف القرن الثالث عشر الميلادى ثوره فى صعيد مصر امتدت شرارتها إلى مصر السفلى . غير أن المماليك استطاعوا إخمادها. وانتهز العرب فرصة هزيمة المماليك فى حمص سنة ١٢٩٩م[١] ، وأشعلوا نار الثورة، وذهب فى هذه الثورة ألوف من العرب وغنمت ماشيتهم وممتلكاتهم .

كل هذه الأحوال المغايرة دفعت بالعرب جنوب الجنوب ، حيث الملجأ الطبيعى لحمايتهم من بطش هؤلاء السلاطين .

على أن هذه الموجت المتلاصقة من المهاجرين العرب لم تحمل معها من مقومات الملك ، أوعناصر تأسيس الدول ، قدراً يمهد إلى قيام حياة مستمرة الاستقرار والتطور ، كيما تجمع بين القبائل العربية . لذلك بقى الحال مضطرباً — كما سنوضحه فيما بعد — حتى القرن الرابع عشر الميلادى ، عند ما سقطت الدولة المسيحية فى دنقلا ، وتولى عدد من الملوك الذين اعتنقوا الإسلام بلاد السودان الشمالى .

أخذت بعد ذلك المهاجر العربية تتخذ طريقاً قرب بينها وبين القبائل العربية التى هبطت على الشاطىء الإفريقى الغربى فى الحبشة وبلاد البجة ، وكان هذا التقرب مما ساعد على جمع كلمة الدويلات العربية التى انتشرت فى حوض وادى النيل الأوسط ، تحت زعامة السلطان السنارى فى حوض النيل الأزرق [٢] ولذا أقام نظام اتحاد تعاهدى بين الدويلات الإسلامية، وذلك فى النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادى . وفى منتصف ذلك القرن قامت حكومة إسلامية فى جبال تقلى[٣]. وفى أواخر نفس القرن تولى سلطان مسلم حكم بلاد الفور ، فتمت

---

(١) هزم المغول المماليك فى شرق حمص فى ٢٣ ديسمبر سنة ١٢٩٩ م .

(٢) جعل هذا النظام الاتحادى عاصمته سنار، وهى تبعد عن الخرطوم بما يقرب من سبعين ومائة ميلا جنوباً — على النيل الأزرق،وهى شمالى « سنار » الحالية — محطة السكة الحديد— وتفصل بينهما الترعة الرئيسية الخارجة من خزان سنار لمشروع الجزيرة الزراعى . ويرجع أصل هذه الكلمة إلى النوبية « أسى — ن — أرتى » أى جزيرة الأخت أو جزيرة الماء . وهذه البلدة قديمة ، وقد وجدت فى ضواحيها بعض الجعارين المصرية ، وعليها اسم تحوتمس ، وذلك عند ما كان أسرى الحرب من الطليان يقومون ببعض الإصلاحات بتسوية الأرض للزراعة . أما إرجاع هذه الكلمة إلى جارية تدعى سن النار، كما جاء فى الوثائق المحلية ، فلا يقوم على سند .

(٣) تأسست هذه السلطنة عام ١٥٦٠ م، بانتقال مقاليد الحكم إلى ابن أبى جريدة الذى صاهر الملك الوثنى، وعرف هذا السلطان باسم القيلى أبى جريدة،وكلمة قيلى نوبية معناها أحمر .

بذلك حلقة الاتصال مع بلاد غرب إفريقيا وشمالها المسلمة .

تعرض قيام الملك السنارى– أوالسلطنة الزرقاء، أو الفونج– إلى جدل كثير من ناحية أصل هؤلاء السلاطين، فنشأت عن ذلك مذاهب متباينة يناصر كل منها فريق بحجته. لذا نجده لزاماً علينا أن نستعرض تلك الآراء وما تستند عليه، ليكون لنا رأياً يكون أقرب إلى الحقيقة. ولذلك نعرض الوثائق، ونتركها تتكلم عن نفسها. وتنقسم هذه المذاهب من حيث الموطن إلى ثلاثة ، وهى :

١ – إن هذه الأسرة جاءت من الغرب – من دارفور فى رأى بعض الباحثين ،ومن برنو بعض آخر من الباحثين

٢ – إنها جاءت من قبيلة الشلك التى تسكن فى جنوب الوادى .

٣ – انها جاءت من الحبشة وينقسم هذا المذهب إلى :

١ – أنهم من الغرب

٢ – أنهم من بنى أمية

٣ – أنهم من بلى – هلاله

ومما تقدم نجد أن جميع هذه المذاهب متفقة على أن هذه الاسرة جاءت من خارج البلاد، وفرضت سلطانها الذى امتد إلى الشلال الثالث شمالا والبحر الأحمر والحبشة شرقاً وكردفان بعض الزمن غرباً، أما الحدود الجنوبية فلم تكن مستقرة .

* * *

وقبل أن ننتقل إلى مناقشة هذه المذاهب يجمل بنا أن نوضح بقدر ما لدينا من معلومات عن الفونج ،وهل هم البيت المالك أم الشعب الذى حكمته هذه الأسرة.

اختلفت الآراء حول مصدر كلمة (فنج) أو (فونج) التى أطلقت على سلطنة سنار ، فالبعض يقول إنها ترجع إلى كلمة بون Bwon فى لغة الشلك، والبعض الآخر يقول إنها من كلمة فون Fon فى لغة النوير ، ورأى ثالث يردها إلى كلمة بونج Bunj ، وهذه قريبة من كلمة فونجى Fonji ، وجميع هذه الكلمات معناها الغريب . أما مسألة تناسخ الحروف الباء والفاء وغيرها ليحل أحدها محل الآخر فأمر له وجوده فى جميع اللغات، وبالأخص الباء والفاء فى لغتى النوبة والشلك

عرف البيت السنارى بالسلطنة الفنجية ، أو بمعنى آخر إن فنج ومترادفاتها استعملت للتعريف بطبقة البيت الحاكم. وتوسع البعض فى استعمال هذه الكلمة حتى شملت ضمناً الشعب الذى حكمه البيت السنارى حكماً

مباشرا . والواقع أن القول بأن هذا التعريف يشمل الشعب مسألة لا تتفق مع حقيقة الأمر ، فابن سليم الأسوانى الذى زار مملكة علوة أواخر القرن العاشر الميلادى — فى بعثة جوهر الصقلى لأمراء السودان — يقول إن أرض الجزيرة السنارية سكنتها قبيلة عرفت باسم كرنينا — أو كرسة، أو كرما ،أو كاسو[١] ، كما أن اسم هذه القبيلة ورد ذكره مع قبيلة العنج بوصف أن هاتين القبيلتين فى جزيرة سنار ، وذلك فى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى عند ما زار البلاد رسول السلطان قلاون[٢] ومن هذا يبدو أن اسم الفنج « Fung » وصل إلى الجزيرة بعد القرن الثالث عشر الميلادى . وهنالك احتمال بأن هذا الاسم جاء مع جماعات من البيت الزغوى ، بعد سقوط سلطانهم فى الحبشة عام ١٢٨٦ ميلادية ، وقيام ملوك الحبشة بمطاردتهم واضطهادهم . وقد تكون لهؤلاء الفنج صلة بالداجو الموجودين فى بلاد الفور ، والذين يقول عنهم بارت « Barth » بأنهم حكموا دارفور فى القرن العاشر الهجرى ، ويعتقد بأنهم يختلفون عن الزغاوى ، كما أنه يقول باحتمال أن موطنهم كان فى جبال فازوغلى جنوب سنار . ويقول الداجو عن أنفسهم أنهم فننجا « Fininga » ، فإذا صحت هذه الدعاوى فيكون هؤلاء هم الشلك الذين ذكرهم بروس بأنهم حاربوا العرب وانتصروا عليهم فى موقعة بالقرب من اربجى[٣]. غير أن هذه الرواية أصابها بعد التصحيف ، كما سنبينه فيما بعد فى هذا الفصل ، وبقى اسم الفونج مشتركاً بعد ذهاب أهله .

الرأى الأول

إن هذه الأسرة جاءت من الغرب : —

١ — من دارفور

٢ — من برنو

---

(١) حقيقة اسم القبيلة هو كاسو ، وهم بقايا من القبيلة الكبيرة التى سكنت جزيرة « مرو » ، وهاجرت بعد تخريب وطنها فى القرن الرابع الميلادى . والمعروف أن وصف بلاد علوه نقله المقريزى عن ابن سليم . انظر كذلك

Burkhardt : Travels in Nubia, p. 497/503. London 1822 (John Murray)

(٢) ابن خلدون

(٣) أربجى بلدة قديمة ما بين واد مدنى والحصاحيصا ، وهى الآن خرائب .

حاول أركل[١] تقديم رأى جديد، وحشد لدعمه المعلومات التى جمعها خلال المدة التى قضاها فى دارفور والتى جمعها بالمر[٢] والتى جاء فيها ما جعل أركل يستخلص بأن البيت السنارى أسسه الملك عثمان الذى طرد من برنو عام ١٤٨٦م . ويبدو مما كتبه أركل فى مقاله الذى نشر فى كتاب الزراعة فى السودان أنه يتمسك بهذا الرأى، بإهماله الإشارة إلى الرأى القائل بأن الأسرة السنارية ترجع إلى بيت من قبيلة الشلك، كما أهمل الرأى القديم الذى يرد البيت السنارى إلى الفور .

الرأى الثانى

إن هذه الأسرة من قبيلة الشلك

ترجع الشلك فى أصلها إلى قبيلة لو « Luo » التى يعتقد أنها كانت تسكن فى منطقة بحيرة «فكتوريا نيانزا»، وذلك قبل هجرتها إلى السودان . ومن الدراسات التى قام بها القس الأب هفمير النمسوى نجد أن قبيلة لو القليلة العدد فى الوقت الحاضر، والتى تسكن فى منطقة بحر الغزال كانت فى الماضى القبيلة الكبرى التى تفرعت منها الشلك، وذلك حين قادها ملكها الأول نيا كنج Nyakang إلى مواطن جديدة امتدت فى العصر الحديث إلى شمال الكوة (على النيل الأبيض) . وبينما نجد أن القبائل الوثنية الأخرى تحتفظ ببعض العادات والتقاليد التى تتفق اتفاقاً كلياً مع مثيلاتها فى العهد الفرعونى، فإن أثر ذلك معدوم فى قبيلة الشلك، وهذا دليل على أن هجرتها إلى جنوب السودان[٣] حدثت فى عهد ليس بالبعيد .

يقول الرحالة جيمس بروس [٤] الذى زار سنار حوالى عام ١٧٧٢ ميلادية إن مملكة سنار قامت فجأة باستيلاء مؤسس ذلك البيت على حوض النيل الأزرق، بعد غزوة خاطفة . وتفصيل ذلك على حد روايته «أن قبيلة من السود غير معروفة كانت تسكن على الجانب الغربى للنيل الأبيض (خط عرض ١٣)، وأنها قامت فى جموع عديدة مستخدمة عدداً من القوارب فى هجومها على المدن العربية، وإن

(١) انظر أركل (ARKELL, More About Funj Origins, SN. 42 Vol. XXVII (1946) on 87/97).

(٢) انظر (H.R. Palmer, Sudanese Memoirs) .

(٣) انظر (Westermann : The Shilluk People Philadelph'a. 1912) .

(٤) انظر (Seligman : Pagan Tribes of the Nilotic Sudan) .

ذلك الجيش من الزنج يعرف فى وطنه باسم الشلك . وعند تأسيس ذلك الحكم كان الشلك عبدة أوثان ، وسرعان ما اعتنقوا الدين الإسلامى لغرض التجارة مع القاهرة ، واتخذوا « الفونج » اسماً لهم . وكانت هنالك ثلاث حكومات رئيسية فى مملكة سنار ، أولاها « الليس[١] » عاصمة الإقليم الذى جاءت منه الشلك ، وتغلبت على ود عجيب شيخ العرب فى معركة فاصلة بالقرب من اربجى ، مما جعل العرب يخضعون لأولئك الغزاة ويتصالحون على نصف الماشية يعطى للشلك ويقبلون تقديم جعل سنوى من نصف نتاج ماشيتهم خلال العام . وتعهد ود عجيب بالقيام بتأديب القبائل العربية الأخرى البعيدة ، والتى تسول لها نفسها بالعصيان والتوقف عن دفع المال للشلك » . وقد دافع عن هذا الرأى كثيرون منهم الأستاذ ا . ه . كين الذى اعتبر أن الشلك هم أصل الفونج ملوك سنار ، وأنهم اختلطوا بالعرب اختلاطاً وثيقاً . ويعارض هذا الرأى روميلى جسى باشا فى كتابه سبع سنوات فى السودان »[٢] ، ناعياً على صاحبه وأشياعه بعبارات التقريع والسخرية ، متسائلا كيف تدهور أولئك الشلك من ذلك الملك الشامخ العريض الذى استمر عدة قرون ناشراً لواءه على أكثر الرقعة التى نعرفها اليوم بالسودان؟ الشلك فى يومنا هذا ينكرون صلتهم بذلك البيت السنارى ، ويقول الشلك إنهم قاموا بمحاربة تلك المملكة الإسلامية كلما سنحت لهم الفرص بذلك ، ويقول الأستاذ إيفانز برتشارد بأن كلمة فونج أو فونجى لا تخرج عن كونها تعريف لطبقة حاكمة معينة حكمت فى دار الفونج ومركزها سنار — كما أبدى شكوكه فى أن أحداً من علماء الأجناس قد كتب رأياً صريحاً يرجع البيت السنارى إلى الشلك[٣] ويقول بأن وسترمان له رأى أورده فى كتابه[٤] ، لكنه لم يقل صراحة بأن الفونج من الشلك فى زمن مضى أو

---

(١) الليس شمال الكوة .

(٢) انظر (Romolo Gesse Pacha "Seven Years in the Sudan" p. 151/152).

(٣) انظر Evans - Pritchard : Ethnological Observations in Dar-Fung, S.N. & R. 1932 Vol. XV, 1932, part 1 p.p. 57).

(٤) انظر (Westermann : The Shelluk People 1912).

حاضر، ولكنه يعتقد بأنه هنالك أدلة على وجود الشلك فى دار الفونج فى عدد يجعل من السهل اشتراكهم بنصيب فى تكوين الطبقة الحاكمة[١].

ذكر وسترمان فى كتابه عن الشلك بعض المفردات المتقاربة فى لغة الشلك عن كلمة فونج، ويحاول رد اسم «عماره»[٢] السلطان الأول للأسرة فى سنار إلى «عمارو» أو «عماكرا» المستعملة فى لغة الشلك كما ذكر أن قول سلاطين باشا بأنهم من الفونج يجعل المرء يظن أن أختيارهم لبنى أمية» يرجع إلى تقارب هذا النسب مع جد الشلك «أموى» « omoi » أخى « Nyakang » جد الشلك المباشر[٣].

وقد أثار موضوع أصل الفونج وصلتهم بالشلك جدلا كبيراً على صفحات مجلة السودان فى رسائل ومدونات وقف فيها شتاوى ونولدر[٤] فى جانب الرأى القائل بأن الفونج لا يمتون بصلة إلى الشلك، كما دافع أركل[٥] عن رأى بروس

يبدو مما أوضحناه أن جيمس بروس كان ضحية قبوله نظرية «الألوان» فى تمييز الأجناس ومقدار رقيها وانحطاطها، حيث يقول «إن ملك سنار يدعى بأنه من القبيلة الغربية الشريفة وهى بنى أمية، لكن فصيلة شعره وتقاطيعه المنبسطة السوداء تدلان على أنه من الشنجالا « Shangalla » التى اسمها «الشلك»[٦]، وإن هذه النظرية هى الآن فى طريق الزوال لاعتمادها على أسس غير مقنعة.

---

(١) يظهر أن نصيبهم كان عن طريق الرقيق.

(٢) صحته «عميرة» كما جاء فى الوثائق.

(٣) انظر Westerman: The Shelluk people p. XII & 156 & p. III Sudan Notes & Records

(٤) انظر Chataway and NALDER : SN & R. Vol XIII pp. 247 — and Vol XIV p. 61 — respectively

(٥) انظر (Arkell: FUN G ORIGINS, SN & R Vol XV part II pp. 201/250)

(٦) انظر (Murray: Life and Writings of James Bruce pp. 417/418 Travels Vol VII pp. 90/91 "Ser"

القسم الثالث

إنها جاءت من الحبشة وينقسم إلى ثلاث مذاهب فرعية

١ — السلطنة من أصل عربي
٢ — السلطنة من بنى أمية
٣ — السلطنة من هلاله

ينفرد هذا الرأى بمصادر أساسية وأخرى ثانوية نجدها مبعثرة هنا وهناك ، وفيها تتوفر الوثائق التى تلقى الضوء مؤيدة هجرة السلطان الأول من شمال غرب الحبشة وقيام ملكه فى حوض النيل الأزرق ، كما أن هذه الوثائق توضح العلاقات التى كانت قائمة بين الحبشة وحوض النيل الأزرق ، فضلا عن توضيحها دعاوى الأحباش بتملك السهول الواسعة الواقعة بين حوضى الدندر والرهد والقاش وجزء من نهر العطبرة بما فى ذلك سهول القلابات . وتبدو هذه الدعاوى فى شكل مطالب محددة فى حالات قيام حكومات ضعيفة فى الجانب السودانى — وأهم المراجع التى سوف نتعرض لها فيما بعد

١ — رحلة داود روبيتى الذى زار السلطان عميرة فى عاصمته « لامول » ، وذلك قبيل انتقاله إلى سنار مباشرة .

٢ — ما جاء فى كتاب « تاريخ حديث لا ثيوبيا لمؤلفه لودلفس (طبع عام ١٦٨٤ م طبعة ثانية) .

٣ — ما جاء فى كتاب تاريخ الحبشة . تأليف بايز (Paez)

٤ — خطاب من السلطان عجيب

٥ — الوثائق المحلية السودانية المتداولة

٦ — مذكرات الضابط الإيطالى تلمنتى التى حققها ونشرها روزينى العالم الإيطالى (١)

٧ — السجلات الحبشية

---

(١) ورد ذكر هذه المذكرات فى مجلة عين شمس ، دون الإشارة إلى تفصيلات ، وتمكنت بفضل المساعدة القيمة التى أمدنى بها حضرة صاحب العزة الأستاذ الدكتور جورجى بك صبحى من الحصول على معلومات وافية بالغرض ، من نيافة الأب سيمونس ، ومن السنيور روزينى الذى أبدى استعداداً طيباً بتوضيح ما طلبت منه الاستزادة فيه .

٨ ــ رحلة هنرى سولت للحبشة

* * *

هذا هو مجمل للآراء التى تعرض لها البيت السنارى من ناحية أصله، ولما كان قيام هذا السلطان وليد حوادث وتطورات سارت جنباً إلى جنب مع الهجرات العربية ومجريات الحوادث فى الأقطار المجاورة، فإننا سوف نتخذ السنوات الأولى من القرن السادس عشر الميلادى بداءة محققة لتاريخ قيام الأسرة السنارية فى حوض النيل الأزرق [1]. ومن هذه السنوات التى تعتبر حداً فاصلا بين عهدين نبدأ متراجعين، لنتعرف العوامل والمؤثرات التى سهلت قيام السلطان السنارى، كما نذهب مع الزمن من القرن السادس عشر الميلادى حتى القرن التاسع عشر الميلادى أى الحقبة التى آلت خلالها أزمة الأمور فى البلاد لسلاطين الفونج، لنعرف ما كان لها من أثر من تكوين حالة البلاد وتكييفها وعلى ذلك فإن قيام الملك فى سنار وثبة أولى تمخضت عنها الهجرات العربية.

* * *

تكونت فى السنوات التى سبقت القرن السادس عشر الميلادى اتجاهات تأثرت بما جاء به المهاجرون من مختلف الأمصار، كما تعرضت الأقاليم المجاورة لمشاكل داخلية مهدت لقيام سلطان إسلامى فى سنار. والهجرات العربية الإسلامية اتخذت لها قواعد ثلاث هامة، وهى وفق الترتيب التاريخى مركز نفوذ فى شرق إفريقيا وقاعدته «عدال»، ويمتد أثرها من ممباسا حتى جنوبى سواكن وباضع، على الشاطىء الإفريقى وإلى شمال بحيرة طانا فى داخل البلاد الحبشية، ومن هذا المركز يمتد النفوذ إلى جزيرة مرو (الكائنة بين النيل الأزرق ونهر العطبرة)، ومحطات هذه القاعدة مدينة سنار. وثانى مراكز النفوذ مركز النفوذ الشمالى، وقاعدته مصر وليبيا، وحده الجنوبى عيذاب سواكن باضع، ومنها إلى دنقلة على النيل، وإلى السودان الأوسط. وتتسع رقعة هذه القاعدة، فتشتمل كردفان والمناطق المجاورة كما تطل على رقعة مركز نفوذ شرق إفريقيا. ويتعاون هذان المركزان تعاوناً كاملا فى بناء تاريخ السودان العربى الإسلامى، بل وتاريخ القارة الإفريقية المظلمة.

(١) هنالك اختلاف لا يتجاوز الثلاثين عاماً تقريباً بين تأريخ البعض والبعض الآخر لقيام سلطة سنار، وعلى أية حال إن انتقال السلطان لسنار يكاد أن يكون محقق التاريخ فى حوالى عام ١٥٢٥م.

وثالث المراكز مركز نفوذ الغرب ، ويشتمل على هجرات من شمال وغرب إفريقيا جاءت عبر رقعته التى اتخذت دارفور طريقها الوحيد ممراً لها . ولم تكن هنالك هجرات ذات أثر بين الجنوب ، ويرجع ذلك إلى المخاطر التى كان العرب معرضين لها فى هجرتهم فى جماعات صغيرة خلال بلاد معادية تكتنفها الغابات والوحوش والهوام .

وننتقل الآن إلى دراسة الهجرات العربية ، عبر مراكز النفوذ الثلاث ، لنتعرف مجريات الحوادث ، كما نستعرض الآراء الخاصة بأصل السلطنة السنارية .

(ا) مركز نفوذ شرق أفريقيا

سيطر العرب منذ عهد سحيق قبل الإسلام على التجارة البرية والبحرية بين الشرق الأقصى والهند وبلدان أفريقيا وشواطىء آسيا الغربية ، ومنها إلى القارة الأوروبية. فكانت بلاد العرب ملتقى القوافل المحملة بالسلع ، كما كانت سفنهم تمخر عباب المحيط الهندى وبحر القلزم : لذا كان من الطبيعى أن ينشىء العرب محطات على الشاطىء الإفريقى (بحرى الزنج والقلزم) ، لحماية مصالحهم التجارية. وكان العرب يتبادلون السلع وغيرها مع أهالى البلاد البعيدة والقريبة ، كما أنهم كانوا يجدون فى هذه الأسواق ومحطاتها مستودعات لتزويدهم لما يحتاجون إليه من مؤن .

وكان ملوك الجزيرة العربية يفرضون الضرائب على القوافل ، وقد بلغت هذه المكوس حداً دفع الروم إلى محاربتهم لإنقاذ توازنهم الاقتصادى الذى أصيب بتصدع شديد بسبب قلة الصادرات بالنسبة للواردات من الشرق . وحاول الروم استخدام الطريق البحرى عبر بحر القلزم ، بعيداً عن سيطرة ملوك الجزيرة وما كانوا يفرضونه من مكوس ، وتعطلت ذلك مصالح العرب التجارية. بسبب نقلها المباشر من الهند والشرق الأقصى إلى موانى بحر القلزم التى كانت تحت سيطرة الروم . فكسدت أسواق العرب التى كانت عماد القوافل[1] . وبينما حدث الكساد فى الحالة الاقتصادية فى الجزيرة العربية ، فإننا نجد انتعاشاً حدث فى شاطىء البحر الأرتيرى الغربى ، بقيام مراكز تجارية سيطر عليها الروم ، وخاصة بعد كشف الرياح الموسمية . وكما أوضحنا فى صدر هذا المقال فإن هذه الحالة التى وصلت إليها التجارة التى بيد العرب دفعت بالعرب إلى الهجرة إلى الشاطىء الإفريقى ، وهو المجال الطبيعى لقبول تلك الهجرات لما بينها وبين جزيرة العرب من روابط ترجع

(١) المقريزى : الإلمام بأخبار من بالحبشة من ملوك الإسلام .

إلى أقدم عصور التاريخ . ويميل البروفسور جريفث (١) إلى القول بدخول النفوذ العربى فى بلاد النوبة منذ القديم ، ويستند فى قوله على وجود بعض الكلمات العربية الأصل فى نقوش مملكة مروه التى يرجع تاريخها إلى القرنين الثالث والرابع الميلادى ، كما وجدت قطع من الخزف الصينى من النوع المشهور باسم سيلادن(٢) .

مهدت هذه الهجرات إلى قيام دويلات إسلامية فيما بعد فى البلاد الحبشية وبحر الزنج ، وامتد نفوذها إلى داخل القارة الإفريقية. وعثر انكليزى عام ١٩٠٣ على قبر لعربى فى روديسيا ، وعليه كتابة تدل على اسم صاحبه وهو سلام المتوفى عام ٩٥ هجرية (٧٠٤ ميلادية) ،كما وجدت آثار عربية فى مختلف البقاع الإفريقية النائية(٣) .

* * *

لم يكتب لسيطرة الروم على الملاحة البحرية وتجارتها طول البقاء، إذ دخلوا بسبب التنافس التجارى فى حروب مع ممالك بتراوتدمر وفارس التى سقطت صريعة الواحدة تلو الأخرى بين مخالب الذئب الرومى. ولم يمض طويل وقت حتى تعثرت إمبراطورية الروم بأسباب كثيرة ، منها اختلال اقتصاديات بلدهم الداخلية ، فتفككت روابطها ، وتقلص نجاشى الحبشة الذى أرسل حملته المشهورة بقيادة «أبرهه» لغزو الجزيرة العربية. فعادت التجارة إلى حالة من الفوضى ، وازدادت سوءاً بعد فشل الجيش فى آسيا ، فتعثرت الأحوال وبقيت غير مستقرة حتى ظهور الرسالة المحمدية ، فتغير الحال وتبدل العرب من جوع وخوف إلى طمأنينة وأمن ، وامتدت آثار ذلك إلى العرب فى مهاجرهم ، فقويت نفوسهم واستمتعوا بنفوذ الدين الجديد ، وتقبلوا أخوانهم العرب الذين تتابعت هجراتهم ، واشتد ساعدهم فكانوا نواة للمهاجر الإسلامية على ساحل بحرى الزنج والقلزم .

---

(١) Griffith: The Nubian Te xts of the Christian Period Berlin 1913 pp. 23/24

(٢) ما زالت كلمة «سلطانية» للخزف الصينى مستعملة ، وهى بلا شك تصحيف لكلمة سيلادين.

(٣) وجد الخزف فى شرق أفريقيا ، وفى عيذاب . انظر : Justus Strands : "Die Portugiesuzeit von Deutch und Englisch ostafrika ، وكذلك Murray, : Aidhab The Geographical Journal, Vol L XVIII No. 3 p. 239.

جاء العرب فى جماعات قليلة إلى الشاطىء الإفريقى ، وهنالك أنشأوا مع العناصر العربية –التى اتخذت مقامها منذ عهود بعيدة سابقة– مراكز فى الجزر الغربية من الشاطىء ، ثم على الشاطىء ، ثم داخل البلاد ، وتمكنوا شيئاً فشيئاً من تأسيس دويلات إسلامية [١] انتشرت من جزيرة كلوة وزنجبار وعدالى وزيلع وجزر دهلك وبثة – حتى سواكن وباضع على البحرين الزنجى والإرتيرى . أما فى داخلية البلاد الحبشية التى تهمنا فى بحثنا هذا نشأت فيها دويلات ، أهمها عفاض (عاصمتها زيلع) دوارو (عدال) المسرحة (فى قجام) الهديه – بلى – دارا [٢] والدولة العربية السابعة فى بلاد الحبشة نقلها كرامرر (عربانى)[٣] (Arabani) .

وكانت هجرة العرب من المسلمين على عهد المصطفى عليه الصلاة والسلام وإسلام النجاشى الذى أشهره بين بطارقته وأهله [٤] من العوامل التى دفعت العرب إلى الهجرة إلى بلاد الحبشة والمناطق المجاورة لها ، كما كان للرعاية التى شمل النجاشى بها العرب أثرها فى مجريات الحوادث .

ازدادت جموع الهجرات العربية بسبب الخلافات التى قامت فى الجزيرة العربية وما جرت وراءها من تطاحن وعراك واضطهاد ، حيث تحولت الجزيرة فى السنوات الأولى من الدعوة الإسلامية إلى معسكرين متنافرين مكنت المسلمين من التدريب على أساليب الجهاد والقيام بالفتوحات التى جاءت بعد ذلك .

ويقول المقريزى[٥] إن قوماً من قريش ، فمنهم من يقول إنهم من بنى عبد الدار ، ومنهم من يقول إنهم من بنى هاشم ثم من يمن ولد عقيل بن أبى طالب ، قدم أولهم من الحجاز ، ونزلوا أرض جبرت التى تعرف اليوم بجبرت ، وهى من مدن

---

(١) احتلت جماعة من العرب عدالس Audalis (مصوع) ، حوالى ٦٣٠–٦٤٠ م

(٢) انظر Awfat, Dawarus (Adal) Es Sarha, El Hadya, Bali Dana

(٣) انظر (Krammerer : LA MER ROUGE L'abyssinie et L'arabie Depuis L'antiquité Tom. I, Troisième Partie pp. 287) . يكتبه البعض (أرابينى) .

(٤) جاءت رواية إسلام النجاشى فى المصادر العربية ، على حين نجد إغفالا تاماً لها فى المصادر الحبشية وغير العربية . وحاول بدج فى كتابه تاريخ أثيوبيا (طبع عام ١٩٢٨ ، ص ٢٧٣) أن يعلل قبول النجاشى دين الإسلام بأنه كان الغرض منه إبعاد بلاده عن غزو العرب وتجنب ويلات الحرب ، ولكننا نعتقد أن سكوت المصادر الحبشية وغير العربية سكوتاً مطلقاً له مغزاه .

(٥) المقريزى : الإلمام بأخبار من بالحبشة من ملوك الإسلام ، ص ١٥ .

أراضى الزيلع ، واستوطنوها وأقاموا بمدينة أوفات [١] وعرف جماعة منهم بالخير واشتهروا بالصلاح إلى أن كان منهم عمر الذى يقال له «ولشمع» ، وتولى من بعده ابنه ثم أحفاده ، وذلك من حوالى منتصف القرن السابع الهجرى حتى منتصف القرن التاسع الهجرى ، عند ما قتل سعدالدين فى جزيرة زيلع . فضعف المسلمون بموته ، واستولى الحطى وقومه أمحره على البلاد وسكنوها ، وبنوا بها الكنائس وحرقوا المساجد ، وأوقعوا بالمسلمين وقائع نزل بهم فيها من القتل والأسر والسبى والاسترقاق مالا يمكن التعبير عنه» [٢].

وعندما تولى الحجاج أمر العراق حارب أهل عمان حروباً طويلة دفعت بالأميرين سعيد وسليمان الأزديان الجلنديان [٣] وأهلهما إلى الهجرة إلى بلاد الزنج ، وتبعهم خلق كثير من الأزد [٤] . وتمكن هؤلاء العرب بعد أن تكاثرت جموعهم من تأسيس سلسلة من الدويلات الإسلامية سيطرت على التجارة الحبشية ، وبالأخص بعد احتلالهم لبناء (زولا) [٥] ، وهى ميناء أكسوم عاصمة الحبشة القديمة ، وهذه هى المنفذ الوحيد التجارى لأكسوم على بحر القلزم . فأصيبت التجارة الحبشية بالكساد ، وتعطلت المصالح وتبع ذلك تفشى المجاعات والأوبئة والثورات الداخلية بسبب أن البلاد كانت فى شبه حالة حصار اقتصادى . وسهلت هذه الحالة السبيل أمام أميرة تدعى « أستر » أوكما يسميها الأهالى استات ، أى النار . وهى زوجة حاكم بوقنه (Bougna) بالقرب من لاستا (بلاد التجرى) ، إذ تمكنت هذه الأميرة من الاستيلاء على عرش الحبشة منتصف القرن العاشر الميلادى . وأسرفت فى مطاردة أمراء البيت السليمانى بقتلها ما يقرب من الأربعمائة أمير ، وكانوا فى قلعة داموت ، كما قتلت واضطهدت المعاصرين لذلك البيت . لذلك لجأوا إلى الهرب إلى الإقليم المجاور من بلاد السودان .

الشاطر بصيلى

---

(١) حقيقتها « عقاض »

(٢) نقلا عن المقريزى : الإلمام ... ، بنصه .

(٣) هم آل عمارة ، ويدعون أيضاً آل جلندى ، وهم أصلا من بيت السلطان فى بلاد كرمان ، ويقال – كما جاء فى كتاب المسالك والممالك لابن حوقل ص ١١٨ (نشرة أوسلى عام ١٨٠٠م) – إن الملك الذى تشير إليه الآية الكريمة « وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا » (الكهف) ، من بيت آل الجلندى من كرمان .

(٤) نقلا عن الصحيفة القحطانية لحميد بن محمد زريق العمانى ، مخطوط بمكتبة سلطان زنجبار – أشار إليه فؤاد صروف فى الرواد ص ٨ .

(٥) زولا هى Audalis القديمة ، جنوبى مصوع مباشرة .